

اما الشيء الذي  
لا يمكن أن تتخلى  
عنه الاثارة الفنية فهو:  
ما تستتبعه من احكام  
قيمة تنفق ونوع  
الهزة الشعورية التي  
يحدثها الاثر في الغير

# الإثارة والنقد الأدبي

بقلم محمد الحسين عبيد

الاثر الفني ينبوع  
اثارة لا ينضب ، وتلك  
خاصية بارزة تذكر  
في طبيعة ما تتميز به  
الفنون الجميلة اذ  
كان نوع الاداء المعبرة  
عن الاحساس

كتعبير عن مجاوبه مع الفنان ، او نشوزه عنه .  
من هنا تبدأ مرحلة النقد انطلاقاً من الاثارة ،  
فالكشف عن مقوماتها الجمالية ، واستمداد عناصرها  
الفكرية وتعليلها يستنزف معالم الشخصية المنتجة ،  
ويتمدد الى مجاهيل النفس المبهمة ، ويظل - النقد -  
يزحف نحو غايته في النمو والارتكاز كلما نضج  
الفكر ، وازدهرت المعرفة ، وانشخذ الذوق ، فيصيب  
من التطور ما يقيمه على أسس منهجية واعية تخرجه  
من حيز الخطرات العابرة ، واللمحات المبهمة ، والاحكام  
المرتبلة . وتلك سبيله في التماس التعابير الدقيقة ،  
واكتشاف الدلالات الواضحة ، واستمداد القوانين  
المنضبطة حتى يكون تعريفه بارتسامات الاثر الفني  
تعريفنا بيننا محكما .

والادب واحد من هاتيك الفنون الجميلة ، يقوم  
وجوده على الاثارة ، ويرتبط مصيره - اصالة - بمقدار  
ما تحتفظ به الشراة العاطفية من حرارة ودفء  
يعصمان القطعة الثرية او القصيدة الشعرية من الهرم  
والذبول ، ويحولان بينها وبين الغناء والبلى ، فاذا  
هي هي وكأنها بنت ساعتها على توارث الاجيال ،  
وتعاقب الزمن ، والا انتهت فعاليتها عند الحد الذي  
تنتهي عنده قدرتها على مجارة التطور ، وقضت بان  
تخلفها عن مواكبة الزمن في ركضه وتوثبه .

وليس للاديب أن يظفر بالخلود المنشود لنتاجه حتى  
يتغلغل الهامه في طلب النخبة من مستودعات الطبيعة  
وتتأصل اثارته بانسانيته ليجد القدرة على تنسيق ما  
اختار بهدي من عبقرية الخلافة ، والسبيل السى  
مكتونات الحياة يستنقذها من ضباب الملابس ،  
ومتاهات الضلالات ، وقد تسربت بما اضفاه عليها من  
معطياته الشخصية فاذا هي في اكمل الحالات روعة  
وطرافة ، وادق الدلالات سمواً وصدقا ، ثم لا يعيبك  
ان تستشف من الصورة حقيقة المنتج او على الاقل كما  
هي في فترة الوحي باعتبار ان ما مصدر عن الاديب  
ظاهرة لمزاجه الخاص يستحيل ان يشترك معه غيره  
في نوع اثارته كاستحالة اشتراكه مع غيره فيما يصور  
شعوره الخاص ، لذلك قال لنجيبوس : « الأسلوب هو  
الرجل » . حتى اذا وقف الناقد ازاء النص الادبي  
باجهريته ومواعينه ، وسلط عليه اضواءه الكاشفة تراءت  
له عناصر الحية عن كذب ، وسرت اليه حيواناتها  
النشيطة بما يشب عن ارادته لتحدد بنفسها الموقف  
الحاسم في الحكم لها او عليها تبعاً للارتسامات التي تتركها  
في نفسه مختلف قوى الكائن الادبي .

وليس هينا على الناقد ان يكتنه اثارة الاديب ، وبمى  
ما تضمنته من اثارات وذبذبات قد توغل في الحقائق  
العلمية ، والنظريات الفلسفية حتى يتدرع بثقافة واسعة ،  
وحساسية مرهفة ، وقدر من الذكاء يستوفي ما تنداح  
به الاشارة اللفظية من دوائر المعاني المضغوطة والا لم  
يامن الزلل في التحليل ، والتعبير ، والتوجيه وسقط

الوجداني بمواطن الجمال . بل الاثارة تعد المحور الذي تجتمع  
حوله هاتيك الفنون ، والمنطلق الذي تنصرف منه في مجاريها  
المختلفة ، ومسالكها المتباينة . انها النواة التي تنبع  
منها ظلال الفصيحة ، وانعام المعزوفة وحدود الرسم ،  
وايقاع التمثال ، واهتزازات الحركة الراقصة المتناسقة .  
وما هذه الا اسماء لوسائل تنوعت تبعاً لنوع وسائل  
الادراك الانساني ، وتعددت بتعدد الطرق المعبرة عن  
الحياة الداخلية التي يحياها الملمهم في فترات الانفعال  
الشعوري المهتمز . ثم لا تلبث ان تزول حدودها المادية  
بانتهاء عمل الحواس ، فاذا الالفاظ والالوان ، والخطوط  
والابعاد ، والمسافات والانعام ، جميعها ، اعراض  
وازياء تعمرى منها الاثارة الفنية حالما تنفذ منطقة  
الوجدان مجتازة عالم الحس ، فلتقي جواهرها في المجال  
الباطني ، وما فيه الا شن لطبق الاخر . وتلك حالها  
في باطن الفني حين المخاض وقبله : شعور وجداني  
عنيف استيقظت له كل القوى ثم تحدر عطاؤها نحو  
المتنفس الاوفى بنوع الاستعداد ولون الاقتدار - على  
وجه الحصر ، او التفاضل - تجسمه المادة المنتخبة .  
لئن كانت الاثارة اثرا للمطاء الفني بعد اكتمال خلقه ،  
وانتظام كيانه ، فانها لم تتخلف ان تكون - ايضا -  
وباحرى - علة وجوده ، وسرحياته ، وعامل خلوده ، ان  
الفني الاصيل يجد نفسه مدفوعاً نحو ادائه بشحنات  
شعورية متفاعلة عود ثقابها اثاره تستولي على وعيه ،  
فتقله في شبه غيبوبة الى عالم الرؤى والانطلاق حيث  
تجد تجربته عناصر البقاء لوجودها الحيوي في  
وليدها المادي ، وتوفر له وسائل المناعة دون الحد من  
عنفوانه المتاجج ان صلحت التربة . ومن ثم صرح القول  
بان ملهفات الجمال تتحدى التزام الزمان والمكان ،  
وموضوعات الفنون اعصى من ان تستنفذ ابعائها  
الزاخرة ، وما ذلك الا لوثيق صلتها بالكهف العميق  
- قلب الانسان - الذي اليه مرد حيرة البرية ( في حيوان  
مستحدث من حماد ) .

هكذا تبدو الاثارة مصدراً وجودياً ممتد للحياة ، دأب  
الحركة ، يحافظ على صلاحياته في استنفار المواهب  
للاستمتاع فالعطاء والابداع ، او الاستمتاع فقط ، لانه  
لا ضرورة الى ان يكون الاثر الفني - دائماً - مولد  
اثارة على نسق الاثارة المباشرة للطبيعة او الحياة خلقاً  
وابداعاً . فالناس ليسوا على مستوى شعوري واحد لتبلغ  
الاثارة لدى الجميع حداً متشابه الجنس والنوع ، وقل  
ذلك حتى مع ذوي المواهب المدعة ، والاستعدادات  
الفنية الخالقة ، لان قضية الانتاج اكثر من مؤهلات  
فهي الى ذلك ترتبط بمقدار الطاقة الابحائية التي يخلقها  
الاثر ، وقدرة انعكاساته على استفزاز النفوس ، ونوع  
الشجون التي تحركها الدلالة - انشائية او وصفية ،  
عاطفية او عقلية ، ايجابية او سلبية - الى ما هنالك  
من تائر بعيد بحالات المزاج الشخصي التي تنعكس  
بها صورة الكون في مرآة الحاسة المتدوقة .

فيما سقط فيه الجهلة او اشباحهم من التفریط الساذج او التجريح السخيف . ( ومن مقاييس الجودة ، كما قال الدكتور مندور - أن يزداد ما يضيفه القارئ الى ما يقرأ ، ولن يضيف الا اذا ترك له الكاتب ما يضيف . . . وقدره الكاتب على الإيحاء تزداد وتضعف بحسب قدرة القارئ الثقافية والعاطفية ، فالقارئ المثقف الحساس هو الذي يستطيع ان يدرك ما يرقد تحت لفظ الكاتب من معنى واحساس ) هذا أمر القارئ فكيف بامر الناقد وهو اكثر من ان يكون مجرد قارئ .

ولكن هذه الثقافة المريضة التي نريد الناقد عليها لا تعني أننا نحاول الحيلولة بينه وبين نزوعه الشخصي لانه ما من شيء يستطيع الحد من تدخل ذوق الناقد في انتاجه النقدي ، وعزله عن سماته الفردية بل هو نفسه عاجز عن ذلك مهما استمسك بالدقة ، وادعى التجرد ، اذ النقد بقدر جانبه الموضوعي في الاستناد الى المقاييس التي تواضع عليها اهل الدائقة والخبرة ، يستند الى جانب ذاتي لا يقل عن فعالية تلك المقاييس ما دام النقد لا يبدو ان يكون - تعبيرا عن حياة المتذوق في تفاعلها مع العمل الفني على هدي مما تواضع على اعتباره اهل المعرفة والوجدان - فكان بذلك بين العلم والفن ، وكان كالادب كلاهما اما ان يستوحي النفس في جملة ما يستوحي او لا يكون . قال أبر كرمبي ( وبديهي انه ليس في العالم شيء يستطيع ان يحد من حرية الناقد في حكمه الذاتي البحث على قيمة اثر من الآثار . . . والحكم طبيعة الفن ، وكانت مطابقة لنظرية الجمال ) . اذن تعدد الاثارة وريزة في النقد ايضا ، ولها صح

اعتبار الاثر النقدي ادبا وان لم يستمد من الطبيعة او الحياة مباشرة بل من خلال ما يدرس ، واذا هو يعرض ضمن تقديراته : نفسيته كناقد عادل ، وقارئ مستشار الى جانب نفسية من ينتقد على ضوء المشاركة التي اتاحها النص بدنيامية الاثارة او فتورها ، ومن ثم كان الاديب المبدع - في نظري على الاقل - اول ناقد لاثره قبل اي ناقد يتقصى نتاجه بالعلاج والتنقيح ، ويستدرك بالترميم ما يبدو غير متساق مع : مستوى الاثارة وروحها ، وعلى نفس الركينتين يقيم الناقد بدوره بناءه النقدي في الكشف عن حسنات النص ، وسيئاته ، وتقييمه بالنسبة لما يقارن . ومنهما - من مستوى الاثارة ، وروحها - يستنطق الاثر عن مبلغ استجابته للحياة ، وتعمقه في الاتصال باسرارها ، والاوضاع التي استكثت بحقائقها - اجتماعية او طبيعية او نفسية او عقلية او انسانية على اختلاف المدارس بين كلاسيكية ورومنطيقية وواقعية والتزامية وفنية ومثالية ورمزية . لان هذه المدارس ما هي الا اتجاهات تحدد وجهة نظر كل في الناحية الجديرة باستمداد الاديب اثارته منها ، او توجيهها اليها طلبا للسمو والابداع ، فالكل معترف - صراحة او ضمنا - بدور الاثارة كعنصر هام في الادب والنقد ، اليها مرد الفرق بين الكلام في حاله العلمية والفنية باعتبار ان العلم يدرس الطبيعة والكون والحياة والانسان والمجتمع والنفس والاحداث شأن الادب ، فارقهما الجوهري : الاثارة التي تحيل كل هذه المعلومات في الاثر الادبي الى حالة شعورية تنفي عنها الجفاف والتحجر ، وتنفخ فيها الدفق والحياة .

محمد الحبيب عباس

تونس

## نزار قباني

في احدث ما كتب  
واحلى ما كتب  
واجرا ما كتب

في ديوانه الجديد

# حبيبتي

صدر حديثا

توزيع  
دار الآداب  
بيروت

الثمن  
٣ ليرات لبنانية  
او ما يعادلها